مكتبتي ٢٩

كوكبُ الأرضِ السّجين

وقصص أخرى

بقلم : عبد التواب يوسف
رسوم : محمد مصطفى

الطبعة الثانية

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ Email: maaref@idsc.net.eg

إعداد ماكيت : أماني والي

- ١ -

دقَّ جرسُ الحصَّةِ، مُعْلنًا انتهاءهَا، واسْتعدَّ الأستاذُ صبْحى لمغادرَةِ حجْرةِ الدراسَةِ، غيرَ أنه تنبَّه إلى أنَّ معَه حَقيبتَه المليئَة بوسَائِل الإيضَاحِ، كما أنَّ عليْهِ أنْ يحمِل كمًّا كبِيرًا مِنَ الكراسَاتِ وهنَاك أيضًا «الكرةُ الأرضيةُ» التى يجبُّ أنْ تكونَ رَفيقتَه أثناءَ إلقاءِ دروسِه.. وتقدمتْ «فريدةُ» التى تجلسُ فى الصفِّ الأولِ، وأبدَتْ رغبتَهَا فى مساعدَةِ مُعلمهَا، فوافقَ على ذلِك مضْطرا، مرددًا عبارةً شهيرَةً:

- صاحبُ الشىءِ أحقُّ بحمْلِه..

ابتسمتْ فريدةُ، وقالت:

- إذَا كانَ ذَلك باستطاعتِه..

- ليسَ لِى غيْر يديْنِ فقط، واحتاج إلى أذرُعِ أخطبُوط.

ضحكتْ وتقدمتْ تسألُ:

- أىَّ هذِه الأشياءِ تختارُ لِى؟

قال:

- أثقلُهَا.. الكرةُ الأرضيةُ..

قهقهَتْ وقالت:

- شريطة ألا تنطبِق علَىَّ النظريَّاتُ الجغرافيَّةُ القديمةُ، التى كانت تقول إنَّ الأرضَ يحملهَا ثورٌ على قرنِهِ..

شاركهَا معلِّمُهَا الضحكَ، وهو يقولُ:

- أصبحَت فكاهَة بَالِية فِى زمنٍ استطاعَ فيه الإنسانُ أنْ يعرفَ وَزْنَ هذه الكرةِ الأرضيَّةِ..

- كيفَ أمْكنه ذَلك؟ مِنْ أينَ له بمِيزَانٍ يضعُهَا عليْهِ؟

- هوَ بالطبعِ لمْ يفعلْ ذلك، لكنه وجَدَ السبيلَ إليْهِ..

تطلَّعَت فريدةُ إلى الكُرةِ الأرضيةِ - النموذَجِ - والتى ستحملُها.. كانتْ مِنَ البلاسْتيك الخفيف، ويغلبُ عليهَا اللونُ الأزرقُ، وامتدتْ يدَاهَا نحوهَا قائلة:

- تعَالى يَا مِسْكينَة..

أبدى المعلِّمُ دهشَتَه لعبارة فريدَةٍ، وسألهَا:

- لماذَا ترينهَا مسْكينَةً؟

- إنَّ الأقدامَ تدوسُهَا، وتشُوطهَا، وتتبادلُهَا وكأنهَا كرةُ قدمٍ.. لقد أصبحَتْ «ملطشة»!

سألهَا معلمُهَا:

- هلْ هذه رؤيتُكَ لهَا؟

- بلْ أراهَا فى ظروفٍ أصْعَبَ وأشدَّ قسوَةً..

- كيف؟!

واستدركَ المعلمُ، كان عليه أنْ يغادرَ مكانَه، ليُخلِيَه للمعلمِ القادمِ منْ بعْدِه، كما أنَّ فريدةَ ستَمضِى مَعَه إلى حجْرةِ المدَرسينَ، وعليهَا أنْ تعودَ قبل أنْ تبدأ الحصَّةُ التاليةُ، لذلك حمل حَقيبتَه فى يدٍ، والكراساتِ فى الأُخرى، واحتضنتْ فريدةُ الكرةَ الأرضيَّةَ، وسارتْ منْ ورائِه، وهِى تردِّدُ مقولةً عربيةً قديمَةً هزَّتْ مشَاعِرَ معلمِهَا حِينَ سمعهَا للمرةِ الأُولى:

- أيُّهَا الطالبُ، سرْ خلفَ معلِّمك واحذرْ أنْ تطأَ ظلَّه..

- ٢ -

سَارَ المعلمُ، ومعَه فريدَة، بسرعةٍ وهمَا يتفَاديانِ الزحَامَ.. وسألهَا:

- لماذَا ترينَ كوكبَ الأرضِ مسكيناً، هل بسببِ البيئةِ؟
- ربمَا، وربمَا لسَببٍ أهمّ وأخْطَر..
- مَا هُوَ؟
- لقد خلقَ الله هذَا الكوكبَ حرًّا طليقًا يدورُ فى فضاءِ هذَا الكونِ الرحيبِ..
عقبَ معلمهَا:
- إنه يدورُ وفقَ نظامٍ دقيقٍ، بل شَدِيد الدقَّةِ..
- أعرِفُ، لكنَّ الإنسانَ وضعَ هذَا الكوكِبَ فى قفصٍ.. جعله وراءَ قضبانٍ، أراهَا غليظة..
- أىُّ قفصٍ؟ وأىُّ قضبَانٍ؟
- ألا تشكِّل خطوطُ الطولِ هذِه قفصاً وقضبَاناً؟
- هلْ تتصورينهَا كذَلكَ؟
- نعم، إنهَا تبدأ بخطٍّ جرينتش.. وتنتَهِى به..
حاولت فريدةُ أنْ تُديرَ الكرةَ الأرضيَّةَ بينَ يديْهَا لكيْ ترى معلمَهَا الخطوط والقضبانَ، فابتسمَ وقال:
- أعرفهَا عنْ يَقِينٍ..
أضافتْ فريدَةُ:

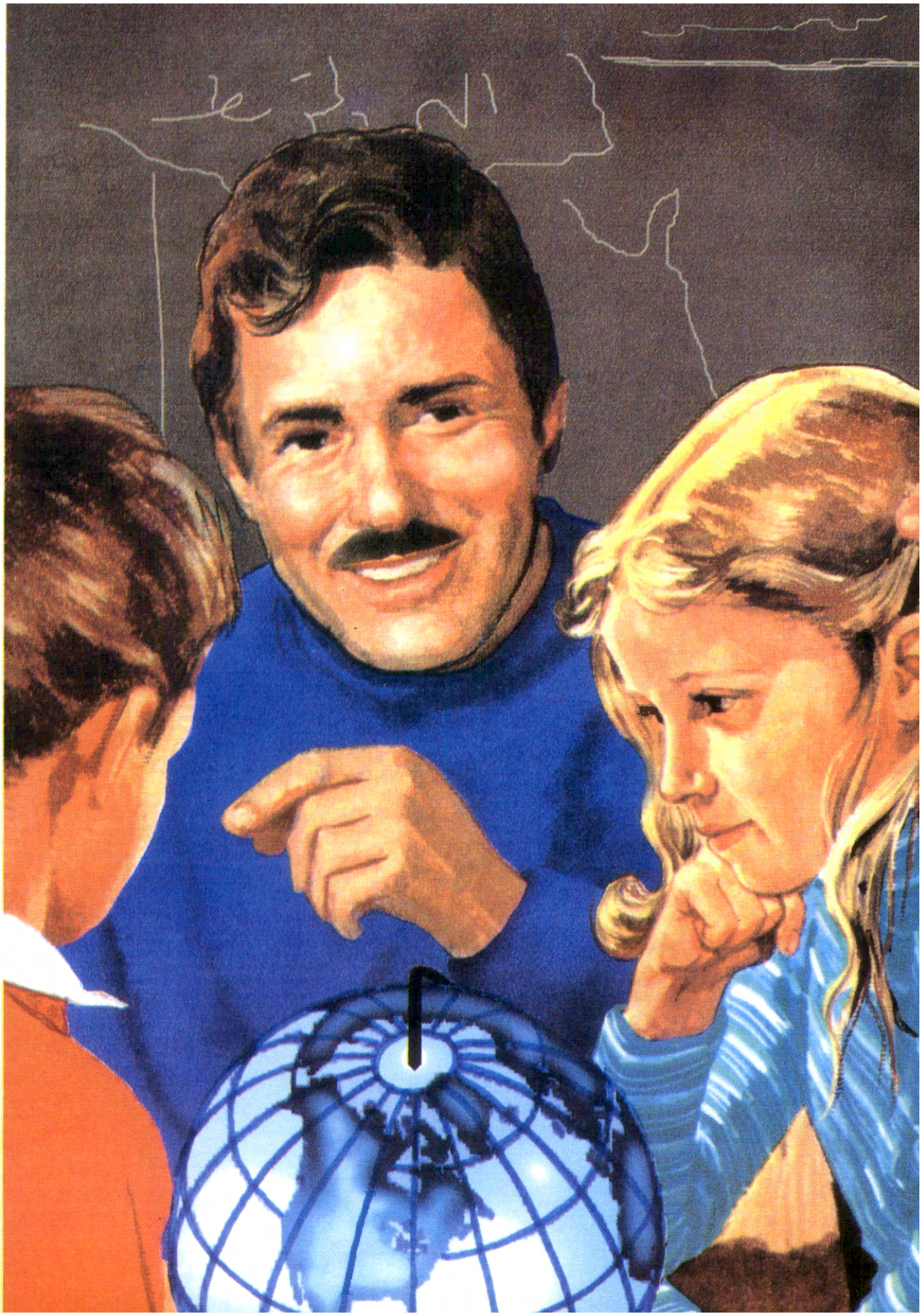

- وهذه الخطوطُ الطوليةُ تمتدُّ منَ القطبِ الشمالى إلى القطبِ الجنوبى فى ٣٦٠ درجة قال:

- إنها وُجِدَت لكىْ تحدِّدَ الزمانَ..

- لقد سجَنَت كوكبَ الأرضِ منْ ورائِها مدَى الحياةِ.. للأبَدِ!

ابتسمَ المعلِّمُ للفكْرةِ.. وكانَا قدْ وصلاَ إلى حجْرةِ المدرسينَ فوضعَ حقيبتَهُ علَى الأرْضِ، والكراسَاتِ على المنضدَةِ، مفسِحاً مكانًا لفريدَةَ لكىْ تضعَ الكُرةَ الأرضيةَ.. وتمتمَ بكلماتِ شُكرٍ كثيرةٍ.. وهو يقولُ:

- سأُحَاولُ أنْ أتصورَ كوكبَ الأرضِ فى قفَصِ الزمَنِ هذَا..

قالتْ:

- هناك آخرٌ..

سألَها:

- أيْنَ؟

قالتْ وهِىَ تضعُ إصبْعَها تديرُ بِه الكرةَ، وتضحكُ..

- قدْ أجدُ فرصةً أخْرى كَىْ أحْكى لكَ عنْهُ.

- ٣ -

لمْ ينسَ معلمُ الجغرافيا الأستاذُ صبْحى ذلكَ القفصَ الذى تخيلتْ فريدةُ أنَّ الإنسانَ قد وضَعَ فيهِ كوكبَ الأرضِ.. وما أنْ لمحَهَا فى الحصَّةِ التاليةِ حتَّى سألهَا عَنِ القفصِ الآخرِ.

قالتْ فريدةُ:

- الإنسانُ، حزمَ الكرةَ الأرضيةَ منْ وسطهَا..

ضحكَ المعلِّمُ وصاحَ:

- ماذَا؟ حزمهَا؟!.. هل يريدُ لهَا أنْ ترقصَ؟

همستْ فى حزْنٍ:

- ستكونُ رقصةَ الذبيحِ.. أو رقصةَ الوداعِ، لأنَّ هذَا الحزامَ التفَّ أيضاً منْ حولهَا، من القطبِ إلى القطْبِ.. إنَّنى أقصد بذلك خطوط العرْضِ..

- أنتِ ترينهَا قضباناً وقيداً؟

- أىَّ شىءٍ آخرَ يمكنُ أنْ أتصوَّرهُ؟.. إنهَا دوائر وحلقات حديدية، ولا فكاك منهَا..

- هِىَ يا فَريدة خطُوط وَهْمِيَّة!

- ها هِىَ مرسُومَة أمامَ أعيننَا، ولا فكَاكَ منْهَا.. وإذَا كانت خطوطُ الطولِ للزمانِ، فهذِه للمكَانِ..

كوكبُ الأرضِ فى سجْنٍ مزدوَجٍ، بهمَا معًا: بالطُّولِ والعرْضِ!

- خيالكِ واسعٌ يا فريدَةُ..

- مَا هُو بخيَالٍ.. إنَّ كوكبَ الأَرضِ فَاقدٌ لحرَّيتِهِ بالكاملِ زمَانًا ومكانًا..

- يبدُو أنَّ هذَا قدرهَا وفقَ تصوُّرِكِ..

- فقدَت كرتُنَا الأرضيَّةُ لا حُريتَهَا فحسْبُ، بل كرامتَهَا بمَا يفعلُونَه بهَا.. منْ يُعيدُ إليهَا حريتَهَا.. من يحطِّمُ القضبانَ التى سجنُوهَا منْ ورائِهَا وخلفِهَا؟، أما منْ سَبيلٍ لإطلاقِ سراحِهَا؟

- هناك سبيلٌ واحدٌ، أنْ نضعَ الطفاةَ، وراءَ القضبَانِ، وساعتهَا تدورُ وتغَنِّى فى حريَّةٍ.. ورِضَا.. وسعَادَةٍ!

صَديقتِي البوصْلَة

فاضل

بعضُ الأَصْدقَاءِ يرونَ فِى هَذه العلبِةِ الصغيرةِ لعبَة لطِيفة، ومسَلِّيَة، يندهشُونَ لها.. إنهُم يضعُونهَا فِى أمَاكِنَ مُخْتلفة، ويعبثُونَ بهَا يمينًا ويسَارًا، لكن مؤشرُهَا يظلُّ علىَ ما هُوَ عليْهِ..

إنه يتَّجه دَائماً إلى الشِّمَالِ..

هو لا يحِيدُ عنه، ولا يقبل بغيْرِه، ويُصِرُّ عليه إصرَارًا كاملاً، وكأنما هُوَ «مبدأٌ» ارتضَاه لنفسِه، وثبتَ عليْهِ..

إننَا نتحدَّثُ عن «البوصلِةِ»، التى يعلقهَا بعضُ الأصْدقاء فى سلْسَلةِ المفاتيحِ، أو يحتفظونَ بهَا فِى صندُوق لعبِهِم، وإذَا ما سألتهم..

- هل تعرفُونَ «بيتَ الإبرَةِ»؟

يُجِيبونَ:

- لا..

- إنَّهُ الاسمُ الذِى كانَ يطلِقُه جدودُكم على لعبتكُم هذِه وصديقتِكُم «البوصْلَة»..

- ١ -

عندمَا قدَّمُوا إليهِ البُوصلَةَ وهو طفلٌ صغيرٌ انبهَرَ بهَا.. كيف يستطِيعُ هذَا المؤشرُ الصغيرُ أنْ يعرِفَ اتجاهَه نحو الشمالِ، أينمَا وضعْتَه؟ منْ علَّمَهُ أنْ يبقى - دائمًا - وهذه وِجْهَتُه، لا يحيدُ عنهَا؟ ولماذَا «الشِّمَال» بالذاتِ؟!.. قالوا له: إنهَا شىءٌ اسمه المغْنَاطِيسيَّة احتفظ بهذِه «البوصْلَة» التى أهدِيَتْ إليه فى منَاسبةٍ جليلةٍ لا تنْسَى، وذلك حين انتهَى مِنْ حِفظِ القرْآنِ الكريمِ كاملاً.. وكبرْتُ ولقيتُ البوصْلَة فى جَيْبِه لا تغادره أبدًا..

كثيرًا ما كانَ أصحابُه يسخَرونَ مِنْ وجُودِهَا معه:

- أىُّ فائدَةٍ تعودُ عليكَ منْهَا؟

- مَا جدْوى وُجُودهَا فى جَيْبِك؟

- أليْسَ مِنَ الأفضَلِ أنْ تحتفِظَ بهَا فِى بيتِك؟

ويبتسمُ..

وعندما يخرجهَا ويحاولُ الأصدقاءُ الاستيلاءَ عليهَا وإخفاءهَا، يتنبهُ لهُم، ويبذُلُ كل جهْد منْ أجْلِ أنْ يسْتعيدَهَا.. وقدْ يحْدُثُ أنْ تضيعَ، وساعتهَا لا يتوانَى عنْ شراءِ أخرى جَديدَة، تكونُ أحدثَ وأجمل منْ تلك التى فقدَهَا..

- ٢ -

نَقَلَ واحدٌ منَ الحاشيةِ إلى الخليفَةِ أمرَ البوصلْةِ، وفى جلسَة لصاحبهَا معَه داعبهُ الحاكمُ، وسأله عن سرِّهَا وتلعْثَمَ، وحَارَ جوَاباً:

- مجردُ أننى أحبهَا..

- هَلْ يكفِى هذَا؟

- أرى فيهَا شيئًا منْ قدْرة اللّهِ..

- هناك مَا هُو أعظمُ منهَا وأجلُّ قيمةً..

- أعرفُ.. لكنْ هكذَا كانَ اختيَارِى..

ويأتِى المهنْدسُ الكبيرُ إلى لقاءٍ معَ الخليفةِ، ويُقدِّمُ إليه رسمًا لقصرٍ جديدٍ يقامُ على ضفَّةِ النهرِ.. ويشرحُ المهندسُ رسُومه، ويتقبلهَا منه الخليفة شاكرًا له براعتَه، ممتدحًا مهارَتَه، وإذا بصاحِبِ البوصلْة يقولُ وقدْ أخرجهَا منْ جيْبِه:

- أرجُو أنْ يسمحَ لِى مولاىَ بكلمةٍ..

- تفضَّلْ..

- بلادُنا حارةٌ أغلبَ فصُولِ العامِ..

- هذَا صحيحٌ..

- وفى هَذِه الرسُومِ لا أرى النوافذَ والشرفاتِ الرئيسيةِ متجهةً مع الشمالِ..

ويراجعُ المهندسُ رسُومَه، ويعدِّلُ منهَا وفقَ اتجاهِ البوصْلةِ.

- ٣ -

ويغفُلُ الخليفةُ عن دورِ البوصْلَةِ فى تحْدِيدِ رسُومِ قصْرِه.. وعندمَا يخرجُ إلى الخلاءِ، يتنزَّهُونَ، ويسْمرونَ، ويأكلونَ، ويحُلُّ موعدُ الصلاةِ، ويرفعُ الأذانُ، فيقومُ بعضُهُم إلى الوضُوءِ، بينما احتفظ آخرُونَ بوضُوئِهِم، ويَجِىءُ دورُ الإمَامِ.. إنَّهُ مضطربٌ.. لا يستطيعُ أنْ يعْرفَ اتجاهَ القبلةِ، ويلمحُه الخليفةُ ويبتَسِمُ مُنْتَظِرًا منه أنْ يجدَ سبيله إليْهَا.. عنْدَ ذلك تقدَّمَ صاحبُ البوصلةِ إليه، وقال لهُ..

- لا تقلق..

- إنى غيرُ قَادرٍ على تحدِيدِ القبلةِ..

قَال له وهُوَ يخرجُ البوصلةَ مِنْ جيبِهِ والخَلِيفةُ ينظُرُ إليه باسمًا فى ارتيَاحٍ.. ويتطلَّعُ هو إلى المؤشرِ الذى يُشيرُ إلى الشمالِ..

- الشمالِ، هذَا الاتجاهُ.. إذنْ فى مقابلةِ الجنوبِ، وإلى اليمينِ الشرقُ.. وأمَامه الغرْبُ.. ويشير بيدِه للأمامِ قائلا:

- وهكذَا تكونُ قبلْتنا فى هَذَا الاتجاهِ..

ويقفُونَ جَميعاً مِنْ وراءِ الإمامِ يؤدونَ الصلاةَ ووجوهُهُم إلى القبلةِ المشرَّفةِ.

- ٤ -

وتمرُّ الأيامُ، ويأتِى موسمُ الصيدِ..

ويدْعو الخليفةُ المقربينَ إليْه ليشاركُوه فى هَذِه الريَاضةِ الحلوة، التى بِهَا يستمتعُونَ بالهوَاءِ الطَّلْقِ، كما أنَّ كلاًّ منهُم يحاولِ أنْ يكشفَ للخليفةِ عَنْ بِراعته فى الرمَايَةِ، وإطلاقِ السهَامِ، والحصُولِ علَى أكبْرِ قدْرٍ منَ الصيْدِ الحلالِ..

وكانَ صاحبُ البوصلْةِ مثلَ الآخرِينَ حريصًا على أنْ يكونَ بالقربِ مِنَ الخليفةِ.. هو لا يبتعِدُ

عنه كثيرًا، وإنْ كانَ حريصاً على ألاَّ يثْقُلَ عليه، أو يبْدأه بالكلامِ.. وحدثَ أثناءَ مطاردتهما لغزَالٍ شَاردٍ أن انفصلاَ عنِ الجميعِ، ووجدُوا أنَّهما قد وصَلا إلى مكانٍ ناءٍ، بعيدٍ، وصَلا طريقَ العودَة إلى رفاقِهمَا، ولم يكُنْ معَهُمَا ما يكفيهما مِنْ غذاءٍ وماءٍ..

انزعجَ الخَليفَةُ، وأعلنَ قلقَهُ الشديدَ، لكنَّ رفيقه أبتسمَ ابتِسامة رقيقة، وأخرجَ البوصْلة مِنْ جَيْبِهِ.. ومنْ خلالها تعرفَ على الجهاتِ الأصْليةِ، وسارَ ومنْ ورائه الخليفة يرشِدُه إلى الطريقِ الصَّحيحِ للعودَةِ إلى عاصمَةِ الملكِ، وإلى قصْرِ الخلافة.. وساعتهَا شكرهُ الخليفة شكرًا جزيلا، وأعطاهُ الكثيرَ ممَّا جعلهُ يحمدُ اللَّهَ أنْ أنقذَتْ البوصْلةُ حياتَه، وجادتْ عليه بعطيَّةِ الخليفةِ..

- ٥ -

لَمْ يعُدْ أحدٌ بعْدَ تلكَ الأحداثِ يسْخرُ منَ البوصْلةِ وصاحبِهَا، بلْ لقدْ حدَثَ يومًا أنْ سَأَلَ الخليفة صاحبَهَا:

- هَلْ مِنْ سببٍ آخرَ يجعلُكَ تحافظُ عليْهَا؟

قال صاحبُ البوصْلة:

- والله يا مولاَى إننى لأشعرُ بالأسفِ والأسَى للكثيرِينَ الذينَ يفقِدُونَ بوصلتَهُم فى الحياَةِ..

هَذَا الشىءُ الصغيرُ ينبهُنِى إلى أمرٍ كبيرٍ.. هو أنْ أعرفَ إلى أينَ أسيرُ، وَما هُوَ المصيرُ؟..

لسْتُ أريدُ أنْ أضربَ فى سبلِ الحياةَ تائهاً ضائعًا، بل أريدُ أنْ أعرفَ «الطريقَ الصَّحيحَ» فيها، فأمضِى فيه، وأنْ أتبيَّنَ «المنهجَ السَّليمَ» فأسِيرُ عليه.. هذَا هو ما تلفتُ البوصلة نظرى إليه، وتنبهُنِى له.. إنَّهُ ليسَ الشماَلِ والجنوبِ ولا الشرقِ والغربِ فحسْب، بل أنْ تهدِينى سواءَ السبيلِ، وَتَقول لِى:

- هذَا هو الطرِيقُ الصوابُ، فأتبعه..

إنهاَ تقول لى، وهى الشىْءُ الصغيرُ:

- إذا كنتُ على صغرِى وضآلتى وبساَطتِى أفعَلُ هذَا، فما بالك بهذَا الكونِ العظيمِ الرحيبِ مِنْ حَوْلِكَ؟!

البيْتُ : القَفَصُ

هَذِه حكَايةٌ تبدُو بسيطَة سَاذجَة..

قد تقعُ معك، يَا عزِيزِى، أو معكِ يَا عزيزتِى..

بَلْ إنَّهَا حصلتْ لى، فَجْرَ يوْمٍ مِنْ أيامِ الأعيَادِ، ورَأيتنِى أكتبهَا، بتفاصيلِهَا وبالخواطِرِ والأفكارِ التى لهثَتْ فِى رأسِى يومَ حدوثِهَا.. واستمتعْتُ بهَا عندَمَا حصلت، وعندمَا كتبتهَا بسرعَةٍ.. وقدمتهَا لِلإذَاعة.. ثمَّ وأنَا أعيدُ صياغتهَا بحماسَةٍ كبيرَةٍ، لأنى أرَى فيهَا معنًى عظيمًا، وقيمَةً رائعَةً. يجبُ أنْ نؤمنَ بهَا، ونعمَل لهَا، ونحِبَّهَا لأنفسِنَا وللآخرِينَ أيضًا.. إنهَا شىءٌ غَالٍ، وثَمينٍ.. مِنَ الضرِورِى التشبُّث به، ونقبِض عليْه بأظافرِنَا ولا نفرط فيه أبدًا.. هَلْ تتسَاءلُونَ عنْ هذَا الشىءِ؟!.. أنتُمْ تعرِفونَه جيدًا، ويقينا سوفَ

تكونُ أكثرُ حبًّا لـه ِ واعـتزازًا بِـه بعْدَ قـراءةِ هَـذِه الحكايةِ التى هِىَ بلا أحـداَث كِـثيرةٍ، لكنـهاَ تحـوِى قدرًا كبِيرًا مِنَ الخواطِرِ والأفكارِ.

- ١ -

صَحوتُ مـنَ النـومِ، فِـى سَاعةٍ مبكـرةٍ، قـرِبَ أذانِ الفجْرِ.. كنتُ أشعرُ بـالعطشِ، والحاجَةِ إلـى الذهَابِ إلى الحمَّامِ.. أمِّـى، وأبِـى، وأخِـى، كـانُوا نَائمِينَ «فى العِسَلِ» - كما يقولُـونَ - والشبَابِيك مغْلقَـةٌ، لذلـك لمْ أَسْـتطِعْ أنْ أرى مَـا أمَـامِى، ومددتُ ذرَاعـى حَتَّـى لا أتخبَّط فـى أثَـاث البيْـتِ، وفجـأةً أحسسـتُ بشَـىْءٍ غريـب.. هنـاك صـوْتٌ خفِيـفٌ فـى صَالـةِ بيتِنَـا الواسـعَةِ.. هنـاك شـىءٌ مـا يحـدُثُ.. يتحـرك.. أنـا لاَ أراهُ.. ولاأكـادُ أسمَعُه.. سألتُ نفسِى:

- أىُّ شىءٍ هَذَا؟

رحـتُ أخطُـو علَـى مـهلٍ، وفـى حـذَرٍ شَـدِيدٍ، ولاأخفِـى عليْكم أنِّـى شعرْتُ بـالخوْفِ.. وتوقفـتُ أكثرَ مِـنْ مَـرَّةٍ.. أحـدِّقُ فـى الظـلامِ وأحَـاوِلُ أنْ أنصتَ لهذَا الصوْتِ الخافتِ، وأتساءَلُ:

- ترُى، ماذَا يمكنُ أنْ يكونَ هذَا الشَّىْءُ؟! هَلْ أنا وَاهمَة لأننى صحوتُ فجأةً مِنْ نومِى؟!.. ربمَا، لمْ أفِقْ تماماً..

ترَامى الصوتُ إلىّ مرةً أخْرى، تسمرتُ فى مكَانِى، وفكرتُ فى أنْ أعودَ لغرفتِى، وأغلقَ بابهَا، وأخفِى نفْسِى تحتَ الغطاءِ.. من شعْرِ رأسِى إلى أظَافِرِ قدمىّ، وهمسْتُ:

- عيبٌ يَا أمنيةُ أنْ تكونِى جبانةً إلى هذَا الحدِّ.. تشجَّعِى.. أنتِ فى بيتِك الحبيب، وأمك وأبوكَ وأخوكَ معَكِ.. نعم، هُمْ نائمُونَ، لكنْ ليسَ هناكَ أبسط وأسهَلَ مِنْ إيقاظِهِمِ إذَا ما كَانَ هُنَاك شىءٌ يقلِقُ أوْ يُزْعِجُ!

وَمِنْ جَدِيدٍ، تجمدتُ فى مكَانِى، فى هدُوءٍ وصمتٍ، لا أتحرك، ولا أحْدِثُ صوتًا، بل أكادُ أكتمُ أنفاسِى، وسادَ السكونُ تمامًا.. لمْ أدخُل المطبخ، ولم أخْطُ ناحية الحمامِ.. ولمْ أعرفْ مَاذَا يحدُثُ:

- أيكونُ فَأْرًا؟!

- لا.. بيتنَا نظيفٌ مِنَ الحيوانَاتِ والحشَرات.. أمّى لا تطيقُ أنْ ترَى صرصَارًا، أو نحلةً، أوْ ذبابَةً..

خطرَ ببَالِى أنْ أضىءَ النورَ، لكننى سرعَانَ ما تراجعْتُ.. إنَّ هذَا سيعطِى هذَا الشىْءَ فرصةً لكى يرَانى ومنَ الأفضلِ لِى أنْ أحْتمى بالظلامِ، وأجعلَه يسْترنِى ويخفِينِى.. وابتسمتُ نصفَ ابتسَامةٍ.

لكن، منْ هو؟ مَنْ هى؟ أىُّ شىْءٍ يكونُ أو تكونُ؟

تشجعْتُ، واتجهتُ للمطبَخِ، غيرَ مباليةٍ، وكأَنَّ لا شىءَ هنَالِك.. ملأتُ كوبًا بالماءِ، وشربتُه، وسرْتُ ببطءٍ إلى الحمَّامِ، وإذَا بِى أسمعُ ذلك الصوتَ الخافتَ مرةً أُخْرى، تلفتُّ حولِى لعلِّى أرى مصْدَرَه.. لاشىْءَ.. وفكرتُ:

- هَلْ أوقظُ أهْلِى؟!

إنهُمْ إذَا صحُوا ولمْ يجدُوا شيئاً لنْ أسلَمَ منْ أخِى وسخريتَه الدائمة منِّى.. إنَّه يرى فى نفسهِ فارساً عربياً لا يشُقُّ له غبارٌ.. أحياناً هو عنترُ بنُ شدَّادٍ، وأحيانًا أبُو زيدٍ الهلالى.. وربمَا تجاوزَ ذلِك إلَى «صَلاحِ الدّينِ الأيَّوبى».. بلْ، وأيضًا «عَبْدِ المنْعمِ رِيَاض».

سَمعت «نغبشَة».. ركزت بصَرِى على المكانِ الذى أتَتْ منه..

- لا شئْءَ..

- ٢ -

سرتُ إلى غرفتِى، قلقةً، أتلفتُ يميناً ويسارًا، لعلىِّ أدرِكُ هذَا الذِى يحدثُ، أو لعلَّه لا يحدُثُ، خاصةً وأَنَّ جدَّتِى قد حكتْ لِى أنهَا خلَّصَت الدنيا مِنْ آخرِ العفاريتِ، وأنا أصدقهَا فى كلِّ ما تقوله وأومنُ إيمانـًا راسخًا بأَنَّه لا وجودَ لها بعدَ أنْ أراحتْ جدَّتِى الدنيا منهَا.. وفجأةً سمعتُ الصوتَ مرةً أُخْرى، أعلىَ قليلاً وأوضحَ:

- تراهُ يدَاعبنى، ويلاعبنِى، أمْ هو يعبثُ بِى؟

مازال الغموضُ سيدَ الموقف، لأننى لا أعرفُ هذَا الشَّئَ ولم أتبينْ سرَّ هذَا الصوتَ، على الرغْمِ مِنْ أننِى ركزتُ بشدَّة، وأعطيتُه كلَّ سمْعِى، وانتباهِى، وحاولْتُ بكلِّ قوة أنْ أطرد القلقَ والخوفَ مِنْ نفسِى.. وعلىّ الآنَ أنْ أعود إلى فِرَاشِى، وأهْجَعَ، وربما استطعْتُ أنْ أنامَ..

وعندمَا وصل بِى التفكيرُ إلى هذَا الحلِّ، تساءلتُ:

- ماذَا لَوْ أنَّ هذَا الشَّىْءَ «خَطَرٌ» دَاهِمٌ؟! كيفَ أسمحُ لنفْسى بالهرُوبِ منه، وهو قدْ يهددُ أسْرتِى وأهلِى؟ وفجأَةً، مرَّ شىءٌ فِى الظلامِ، كأنهُ شبحٌ، عبرَ فى سمَاءِ المكانِ، فى لمْحِ البصَرِ، أوْ كأنهُ رمحٌ انطلقَ مِنْ قوسِى، ارتفعَ مِنْ جانبٍ إلى أنْ وصلَ إلى قربِ السقفِ، وانحدرَ إلى الناحيَةِ الأُخرى، ولمْ يحدُثْ غيرُ صوتٍ خافتٍ، لا يكادُ يسمعُ، أو يُرى.. لكنهُ زادَنِى حَيْرَةً..

تراجعْتُ للوراءِ، وألصقتُ ظهرِى بالحائطِ، ولم أتحرك مِنْ مكانِى قيدَ أُنملة.. وكنتُ أسمعُ صوتَ أنفاسِى، وإنْ عجزَتْ عينايَ عنْ رؤيةِ شىءٍ فِى هذَا الظلامِ الدامسِ.. وفجأةً، ومنْ جدِيدٍ، لمحتُ خيطًا يتحرك منْ ذلك المكانِ الذى جاءَ إليْه، ليعودَ إلى حيثُ كانَ مِنْ قبلُ.. لكننِى فى هذِهِ المرة دققتُ النظرَ، وخيلَ إلى أنَّ لهذَا الشىءِ جناحيْنِ يرفرِفُ بهمَا..

- أيكونُ طائرًا أو عصفورًا صغيرًا؟.. ربمَا..

لكنْ مِنْ أينَ دخلَ؟ ترُاه يشعرُ أنه فى سجْنٍ؟ كيف لم يعرفْ لنفسهِ طريقًا إلى الخارجِ؟ ماذَا لوْ

أنَّه خفاشٌ، وليسَ بطائرٍ؟ وماذَا لو كانَ مِنْ ذلك النوعُ الذى يقولُونَ عنْه إنَّهُ ينشُبُ مخالبَه فى الوجُوهِ ويمتصُّ دماءَهَا؟!.. أعرفُ أنَّ هذَا النوعَ لا يوجدُ فِى بلادِنَا، لكنْ ماذَا لو أنَّه تسلَّلَ إليهَا؟.. أخفيتُ وجْهِى بيَدىَّ، وإنْ تركت أصابعَهما منفرجةً أتطلعُ منْ بينهَا لعلِّى أرى شيئاً، ثم تنبهْتُ لسذاجَةِ هذَا الذِى أفعلُه، وسخرتُ منْ نفْسِى قائلة:

- إنه أصغرُ منى حجماً، وأضعفُ منى بدونِ شَكٍّ، ولابدَّ وأنَّه يرتعدُ خوفا منِّى، وأنّه يخشَانِى أكثرَ مماَّ أخشَاهُ.. مَا أفعلهُ الآنَ: عيبٌ.. وجَدِيرٌ بِى أنْ أستعِيدَ نفسِى!

- ٣ -

رفعْتُ يدَىَّ مِنْ فوقِ وجهى، ورفعتُ رأسِى فى ثباتٍ وتَحَدٍ.. ودَبَّت الحياةُ فى رجلىّ، وقدمىّ، ولَمْ تعدْ ركبتاى ترتعدَانِ، وتقدمتُ فى بسَالةٍ وشجاعة، تجاوزتُ ما كانتْ عليه نسيبةُ بِنتُ كعْبٍ، ورُفيدَةُ بنتُ سَعيدٍ، وجدَّاتى العظيمَات اللاتى قاتلنَ الأعْدَاءَ، مثلَمَا فعلتْ شفَيقَةُ محمد فى ثورة ١٩١٩ وأمُّ صَابِرٍ فى

انتفاضَة ما بعْدَ إلغَاءِ المعاهدةِ مع إنجلترا عام ٥١، وأيضا أمُّ حنان فى حرْبِ أكتوبر ٧٣.. لمْ اتجه إلى غرفتى، بل سرتُ فى إقْدامٍ نحو نافذَةِ البيْتِ، وأنا أقولُ:

- كيفَ تأَتَّى لبيتنَا أنْ يكونَ قفصًا لهذَا الطائرِ الصغيرِ؟ إننا نعيشُ حياةً فيهَا مسَاحةٌ كبيرةٌ للحريَّةِ.. أبِى وأمِّى يمنحَانِى وأخى الثقة، ويعطياننَا مِنَ الحريةِ الشىءَ الكثيرَ.. هما يحترمانِ آراءنَا، ولا يسفِّهَانهَا أبدًا.. وأعرفُ أنَّ زميلاتٍ وزملاءٍ لنا يغبطوننَا على هَذه المعاملة النابعَةِ مِنْ أننى وأخى نعرفُ المسئُولية ونتحملُّهَا.. آه، لو أنَّ هذَا العصْفورَ يعرفُ هذَا، لآثرَ البقاءَ عندنَا فى بيتنَا الجميلِ بالحريةِ، والذى يتصرفُ كلٌّ منْ فيه بأريحيَّة، لكنه فيمَا هو واضحٌ يفضلُ عليه عُشَّه، الذى هوَ أعْلى الشجَرةِ، ومِنَ القشِّ.. وربمَا يعَانى فيه البردَ شتاءً، والحرَّ صيفا، لكنه يحْتملُ كلَّ ذلك من أجْلِ أنْ يظلَّ حرًّا.. كمْ أنتِ غالية، أيتُهَا الحريَّةُ.. وكمْ هوَ كثير ما ندفعُه مقابلك ومنْ أجْلِك.. ليس أدلّ علىَ ذلك منْ رفضِ هذَا العُصْفور للإقامةِ بينَنَا، على الرغمِ منَ الحبِّ والدِّفْءِ والحنَانِ الذى يشيعُ فى جَنَبَاتِهِ،

وأيضاً على الرغمِ من هذَا الأثاثِ الفاخرِ، وأيضاً اللوحَاتِ الفنيةِ المعلَقةِ، وتلك الأشياءُ الجميلة التى تشعُرنِى بالأمانِ والاطمئنانِ.. لماذَا لم تقنَعْ هذَا الطائرَ البسيط بأنْ يظلّ معنَا وَ «البيْت بيته»؟ لماذَا يحسُّ أنهُ أسيرٌ، ومحبوسٌ، وسجينٌ؟.. إنَّ لدينَا طعَامًا شهيًّا، ويكفينَا إياه، ولنْ يلقى هنَا حدأةً أو غرابًا يعتدِى عليه، وقدْ يخطفهُ نسرٌ أو صقرٌ بمخَالبه، ومعَ ذلك فإنَّ عشَّه القشُّ يفضُل بيتنَا ويتفَوقُ عليه..

.. إننِى أعرفُ جيدًا معْنى الحرية، خاصَّةً حين يغضبُ أبِى أوْ أمِّى لخطأ ارتكبتُه، وأسمعُ هَذِه العبارةَ:

- اذهبى إلى غرفتِك وأغلِقى بابكِ عليْكِ!

ساعتهَا يهبِطُ قلبِى فِى قدمِى، وتزلزلُ الأرضُ من تحتهمَا، وتسيل دموعِى، ولا أستطيعُ أنْ أمنعهَا أو أجففهَا.. وانسحبُ إلى داخِلِ الجدرانِ، التى تكتمُ علىّ أنفاسِى، وأجدنِى أصرخ:

- أريدُ الهوَاءَ.. أريدُ الحريةَ..

وأشعرُ ساعتها أنِّى لا أكبرُ.. لا أنمو.. لا أعيشُ.. إلى أنْ أسمعَ طرْقهُ على بَابِى يردُّ إلىَّ رُوحِى، وتطلقُ سَرَاحِى، وأخرجُ إلى الدنيا الواسعَةِ، وأتفهَّمُ العبارةَ التى تقولُ:

- كيف تتسعُ لى الدنيَا وحذَائِى ضيقٌ؟!!

- ٤ -

لمْ يكنْ غريبًا ألاَّ تخطرَ لى فكرةُ أنْ أمسكَ بهذَا الطائرِ، وأضعَه فى قفصٍ.. إذْ ربمَا كانَ مغرورًا، وقادرًا علَى أنْ يشنفَ آذاننَا بالغنَاء.. لم أفكرْ فى هَذَا.. لأننى لنْ أستطيعَ أنْ أقنعَه أننى أضعَهُ فى القفصِ لأحْميه منْ قطَّتِى، وأننى أحافظُ عليْهِ منْ عشِّه القشُّ الذى تهدِّدُه فيه أخطارٌ عدةٌ.. قدْ يردُّ علىّ:

- لماذا لا تحبسينَ القطةَ فى القفصِ؟.. ثم منْ قالَ لكِ أننى أقبلُ أنْ أستبدلَ عُشِّى ببيْتِك، أو بقصْرٍ ملكى منيفٍ؟!.. لا لا.. أعْطِنى حريَّتِى، أطلقْ يدىّ.. كيفَ تستعبدُونَنى وقدْ خرجتْ من البيضَةِ حرًّا طليقًا؟.. أولُ ما أفعله فورَ خُروجِى أنْ أرفرفَ بجنَاحىَّ، لأشعرَ بحريَّتِى، حريَّتِى فِى أنْ أطِيرَ.. وأفكرَ.. وأقررَ لنفسِى.. أعرفُ أنَّ بيتكُمْ

أكبرُ، وأوسعُ، وأجملُ، لكنكُمْ حينَ تُريدُونَ أن تمتدِحُوه تقولُونَ عنه إنَّهُ «عش»..

كانت هذه هِىَ خواطرِى وأفكارِى وأنا أسيرُ تجاهَ نافذَةِ البيتِ، وأفتحهَا على آخرِهَا، ولم أنتظرْ لأراه وهو ينطلقُ من بيتنَا القفص، لكننى حركتُ له أصَابِعى الصغيرةَ ملوحة، قائلة فى مودَّةٍ ومحبةٍ:

- باى باى.. معَ السلامةِ!

وعدتُ إلى فرَاشِى، أتقلبُ فيه، غيرُ قادرَةٍ على أنْ أواصِل النوْمَ، لأنَّ أفكارًا راحَتْ تؤرقُنِى.. وتذكرتُ أنَّه قيل لى عندَمَا سألتُ:

- لماذَا ليسَ فى حديقةِ الحيوَانِ حُوتٌ؟!

- الحوتُ إذَا أحسَّ أنه داخل شباكِ وأنه فقدَ حريتَه ينفُقُ.. ويمُوتُ!

إلى هذَا الحدِّ تكونُ الحريةُ أغلَى وأثمنَ منَ الحياةِ ذاتِهَا حتَّى عنْدَ الحيوَانِ؟

وتذكرتُ ذلك الإنسانَ، الزَّعيمَ، الذى كان يُلْقى خطاباً سياسياً فى ميدانٍ عامٍّ، واقتحمَ جنودُ الاستعمَارِ والاستبدَادِ المكانَ، وقبضُوا علَيْه، وقدمُوه للمحاكمةِ، وبقى عاماً كاملاً فى

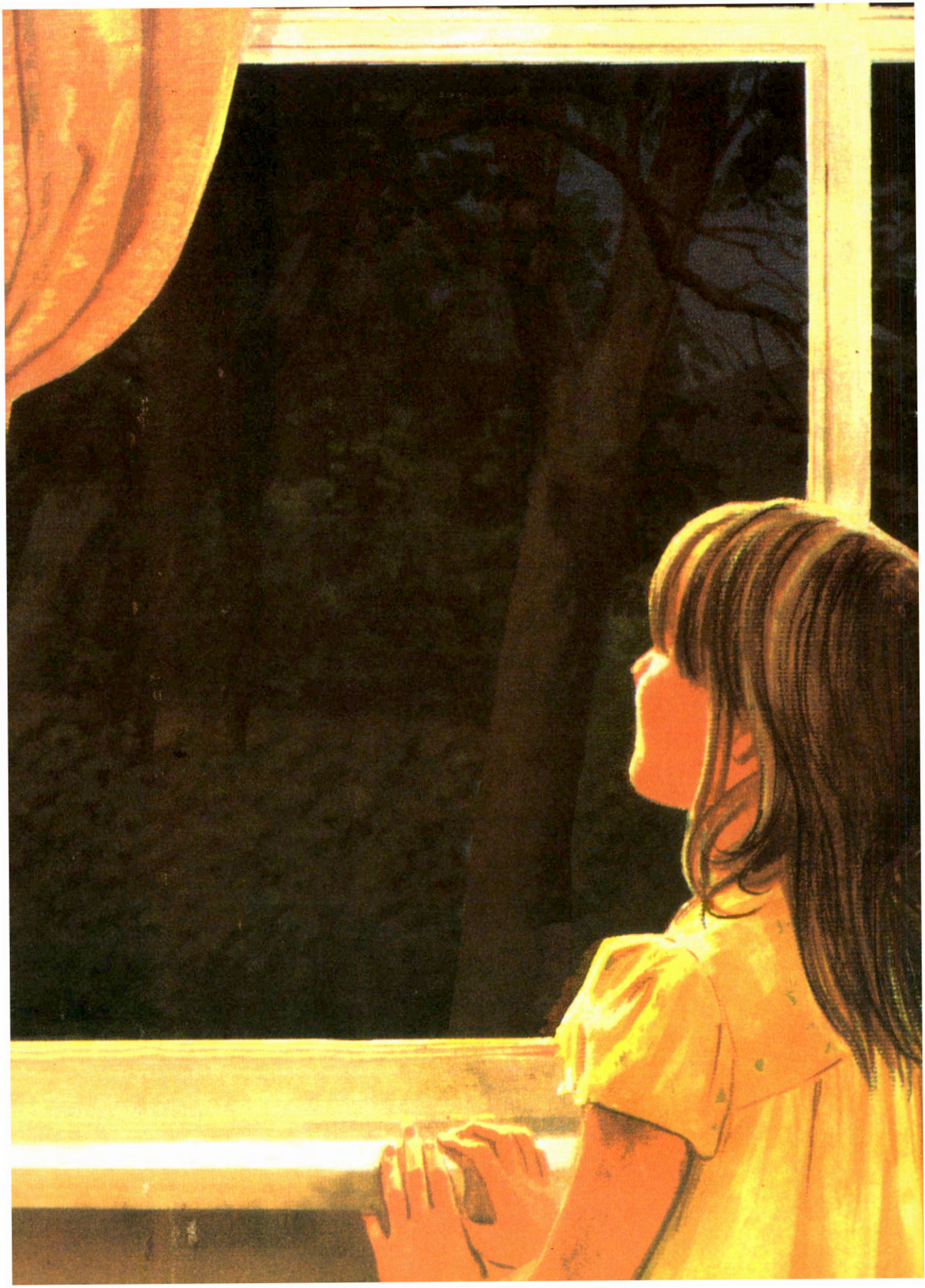

السجْنِ، وعِندمَا خرجَ كانَ أعوانُه فى انتظَارِه عِنْدَ البابِ، وحملُوه على الأكتافِ يهتفون لهُ وهمْ لا يعرفُونَ إلى أيْنَ يَمْضُونَ به، طلبَ منهمْ أن يحْملُوه إلى نفسِ المكانِ والميدَانِ، ووقفَ بينهُم يقولُ ويواصِلُ خُطبَته.

- كنتُ أقول حينَ قبضُوا علَىَّ أنَّ الحريةَ..

وأخيرًا نَامتْ..

وعندمَا صحَت الأُسْرةُ فى الصباحِ ووجدَت النافذةَ المغلقةَ وقدْ فُتِحَتِ عنْ آخرِهَا، اندَهَشت وعندمَا عرفت بالحِكايةِ شَكرت الصغِيرةَ، نصيرةَ الحريةِ، لأنهَا لمْ تبقِ العصفورةَ حبيسَةَ البيتِ القفصِ طوِيلاً..

رقم الإيداع	٢٠٠٥/٢٠١٨٦
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6848-8

٧/٢٠٠٥/٤١

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)